نزلنا ضيوفاً في قرية درزية والأرمن يهربون من بطش جمال السفّاح

تقديم وتحقيق: **أ.د. سيّار الجميل**
كندا

تقديم

هذه هي مذكرات الاستاذ تحسين قدري (1894 –1986) المرافق العسكري الاقدم للملك فيصل الاول منذ التحاقه في عمليات الثورة العربية الكبرى عام 1916، و مرافقته له في الحكومة الفيصلية في سوريا، وبقائه تحت ظله على امتداد عهد فيصل في العراق ووصوله الى رئاسة دائرة التشريفات في البلاط الملكي العراقي واستمرار وجوده مرافقا وأمينا وسفيرا دبلوماسيا للعراق على عهد الملك غازي الاول 1933– 1939م، وعهد الوصاية 1939– 1953م وعهد ابنه الملك فيصل الثاني 1953– 1958م وبقي يعيش في سويسرا حتى رحيله في شهر آب / اغسطس عام 1986، وهو من اصل سوري، ولكنه تربى ودرس في العراق وشهد تاريخ العهد الملكي في العراق بطوله، فهو ذاكرة تاريخية لحياته الطويلة في القرن العشرين.

ورغم صعوبة المشي والحركة بعد السقوط على الأرض، فقد أسرعت بالمشي والتخفي بين الزرع، ثم نظرت خلفي، فرأيت شرطياً عسكرياً يهبط بعد تركي القطار ويلاحقني.. وقلت لنفسي لا مهرب من استعمال السلاح إذا أراد أن يلقي القبض علي...! لأنه حينذاك لا محالة من قتلي، وكنت لا أهاب الموت، ولكني كنت أخشى أن تضيع الأوراق السرية، و يترتب على ذلك أن يتأخر الهجوم العربي على القوات العثمانية، وكانت فكرة الثورة العربية هي أعز آمالي ومحط أحلامي، وكنت أشعر بالتحفز حين أتخيل نجاح الثورة العربية، واستقلال وسيادة البلاد العربية، لذا قررت الأخذ بزمام المبادرة تحت هذه الظروف بمجابهة الشرطي العسكري، فأخرجت المسدس ونظرت إليه نظرة المتهور المجازف، والثائر العربي من ظلم العبودية، وإذ بالشرطي العسكري يغير وجهة سيره، ويمشي في اتجاه مخالف لوجهة سيري، وبقيت ألاحقه بنظراتي إلى أن اختفيت عنه بين الحدائق والأشجار، وبقيت أمشي لمدة أربع ساعات إلى أن وصلت آخر محلة الميدان شمال محطة القدم، حيث وجدت عربة قديمة تسير ببطء فأوقفتها، وطلبت من صاحبها أن يوصلني إلى القنوات حيث مسكن أخي في الشابكلية، وقبل صاحب العربة أن يصطحبني، بعد أن دخلت معه في نقاش صعب لإقناعه، وطلب مني مبلغ أربعة مجيدي.. ومن الطبيعي أن أوافق على الفور، ثم خلعت الخوذة (الأنورية) ووضعت المحرمة على فمي لكي لا يعرفني أحد، ووصلت المنزل عند أخي بسلام وأعجوبة، بدون أن ينكشف أمري، و أخبرت أخي بما يلزم، وطلبت إليه السفر فوراً، لأن أمري سينكشف بسبب فقداني من مقر قيادة فون ساندرس، وسوف يتم توقيفه هو أيضاً، ولكن أخي أحمد أراد أن يعقد أعضاء جمعية العربية الفتاة اجتماعا، وأن نغادر بشكل يترك أثره في دمشق.

وافقت على مضض على قرار أخي هذا، و طلبت منه أن أختفي في محل سري للغاية مع وثائقي السرية، فغيرت لباسي العسكري وارتديت بدلتي المدنية، ثم أخذت جميع وثائقي السرية وذهبت مع سيدة من أقارب عائلة أخي من بيت مردم بك وأسمها (سرو)، واجتزنا سوق مدحت باشا، ووصلنا إلى محلة قريبة من القصاع في زقاق ضيق يؤدي إلى بيت فارغ وقديم جداً وفيه غرفة مظلمة تشبه السرداب، حيث اختبأت فيها، وكان الطعام يصلني كل يوم بواسطة (سرو)، وكنت شديد القلق من انكشاف أمري وذهاب آمالي سدى، ولذا كنت أحث أخي بالاستعجال في ترك دمشق، ولكنه لم يكن قد أتمّ لوازم السفر من عتاد وسلاح وخيول، ولم يستكمل جمع من يريد للذهاب معنا.

ومن غريب الأمر أن البيت الذي كنت اختبأ فيه، له مدخل يوصد بدون قفل، فتأمل ما يحدث لي كلما كانت تأتي " سرو " بالغداء، حيث كنت أعتقد بأني ذاهب إلى الموت المحتم لا محالة، وأن أمري قد أكتشف، وأن وآمالي القومية قد انطفأت، ولتهدأ أعصابي بعد مضي ثلاثة أيام على هذا، طلبت قنينة من العرق، وكان هذا هو اليوم المقرر لنترك دمشق، ولكي لا أورط بقية الأخوان بدون داعي لأنني أنا الذي كنت مطلوباً وملاحقاً، طلبت أن أتوجه وحدي إلى محل اللقاء في الغوطة (جرمانا) مساءً، وطلبت إرسال بذلتي العسكرية مع الكوردون لمرافق عسكري، عندها شربت قنينة العرق لكي تهدأ مخاوفي، ولكن هذا لم يسكن اضطرابي، بل شعرت أن تأثير العرق كان مثل تأثير شرب الماء...!.

الرحلة المصيرية:

خرجت من الدار بالزي العسكري كمرافق حربي حاملاً الأوسمة والرتبة، وبكل هدوء ركبت العربة وعبرت شوارع دمشق وحيدا، ووصلت محل اللقاء، وهنالك وجدت أخي والأخوان رستم حيدر

ومن غريب الصدف أنني في عام 1934 أو 1935 ذهبت إلى الإسكندرية للاصطياف، واضطررت للذهاب إلى طبيب الأسنان، فتوجهت إلى أشهر طبيب في حينها، وأسمه على ما أذكر " كريكوريان "، ومن سياق الحديث معه اكتشفت أنه كان حاضراً معركة البئر هذه، فتصافحنا وقال لي: لولاك لكنا قتلنا جميعاً، وذكر لي الحادثة كما كانت وبجميع تفاصيلها، عندها قلت لنفسي: " أن الإنسان يجب أن يعمل الخير في حياته لأن هذا لا يضيع"، وأنني على يقين من هذه الفلسفة الواقعية التي جربتها مراراً، وتخلصت من الكثير من المآزق بسبب جنوحي لعمل الخير، ومساعدة المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين. كنا نسير طوال الليل في هذه الرحلة، وقد تعودت على النوم على الهجين، أما أخي الدكتور أحمد فكان على فرسه السوداء (أنكلو أراب) التي اشتراها من دمشق، وكانت من غنائم الجيش البريطاني التي استولى عليها الأتراك وقت التقدم في هجوم القنال.

ورفيق التميمي وخليل السكاكني وغيرهم، والكل يرتدون اللباس العربي ويأكلون البطيخ (الركي)، ولأنني كنت الجندي الوحيد بين الحاضرين الذي كان مدرباً على خوض المعارك، فقد نظمت رتل المسيرة. وكنت أشعر وعلى يقين بأن أمري قد أنفضح في مقر القيادة وأن جمال الصغير (مرسيفلي جمال) أكبر أعداء العرب بعد جمال السفاح كان يلاحقني، لذلك شعرت أن من الضروري ترك منطقة الخطر بسرعة، وهذه النقطة لم يلتفت أليها كثيراً بقية الأخوان، وفعلاً علمنا فيما بعد أن بيت أخي هاجمته الشرطة العسكرية بعد مضي ساعة واحدة من بعد أن تركنا دمشق، وبدأ التحري والبحث عنا جميعاً، وكناّ في طريقنا إلى جبل الدروز..!

الطريق إلى جبل الدروز:

كان علينا أن نجتاز مخفرين قبل أن نصل إلى جبل الدروز، ولذلك فقد أجريت الترتيبات اللازمة لصد أي هجوم متوقع علينا من هذه المخافر، وسرنا بعون الله وتصدينا لطلقات نارية من أمام المخافر، وقابلناهم بإطلاق نار شديد، وكانت هذه المخافر من الجندرمه فلم يلاحقوننا، مع العلم بأننا كنا على استعداد تام لمقابلتهم للتخلص من منطقة الخطر، وفي الصباح الباكر وصلنا أول قرية من قرى جبل الدروز .

الفصل الرابع

اللقاء:

كان أخي أحمد على اتصال دائم مع شيوخ جبل الدروز، وعندما وصلنا القرية الدرزية نزلنا ضيوفاً عند شيخ القرية، وتنفست الصعداء لمرورنا بسلام من خلال منطقة الخطر، وعبورنا من مخفرين في منطقة الحدود بين دمشق وجبل الدروز.

تابعنا مسيرتنا في اليوم الثاني في جبل الدروز، عابرين مركز لواء الجبل السويداء، وقد أخذت مسيرتنا في الجبل أكثر من خمسة أيام، ثم وصلنا قرية " الحلبية "، وحين وصولنا وإذ بقوة من الجندرمة التركية تهاجم بيت الحلبية، وقررت الدفاع بالسلاح وعدم الاستسلام . وكان أهل الحلبية موالين للأتراك، وكانت التعقيبات تتابعنا منذ أن تركنا دمشق، وقد أرسلت هذه القوة لكي تلقي القبض علينا. وأخذ أخي يخطب في المختار وشيخ القرية وزعيم عائلة الحلبية، وأثرنا فيهم النخوة في الشهامة والقواعد العربية الأصيلة، ومن المعروف بأنه حين يحل الضيف عند أحد العشائر من العرب، لا يجوز أن يسلُم الضيف، حتى لو كان قاتل أبنه أو أباه. وهكذا قضينا الليلة بقلق زائد، ولم أنم طوال الليل كان الشيخ الحلبي لا يوافقنا على ثورتنا العربية، ويقول أن الأتراك هم آبائنا و أولياء نعمتنا فكيف نثور عليهم؟ وعبثاً حاولنا إقناع آل الحلبي، ولكن الشيخ قال لنا أنه من العيب أن يسلمنا إلى القوة التي هي في داره..! إلا أنه يرغب أن نترك داره بأسرع وقت ممكن، فتركنا منزل الحلبية تحت ضغط شديد ورعب وخوف، ووصلنا لأول قرية من قرى بيت الأطرش، وطبعاً تبدل الموقف تماماً، لأننا كنا قريبين من الزعيم سلطان باشا الأطرش، وهذه القرية تقع في آخر الجبل وهي قرية حصينة، وبعدها تأتي الحرة وعرب اللجاة وقلعة الأزرق، وكان سلطان باشا الأطرش زعيم حركة الجبل الاستقلالية العربية، وعلى اتصال معنا ومع الشريف فيصل بن الحسين، ولقد بالغ في إكرامنا، وكان في كل مساء يقدم لنا " المنسف " العربي الشهير، وهذا المنسف كان يحمله أكثر من ستة أشخاص، ويتكون من الرز وفوقه أربع خرفان وكباب واللبن، وكنا نتلذذ في أكله، وأثناء وجودنا بضيافته، التحق بنا شخصان من آل العسلي وبعض الأشخاص الذين انتظرناهم لكي ينضموا ألينا، وقد وجدت أحد الجنود ومعه مدفع رشاش (متراليوز)، ومن هنالك أعلنا استقلال جبل الدروز وانضمامه لثورة الشريف الحسين بن علي.

إنقاذ الأرمن:

كان الأرمن ما زالوا يهربون من بطش جمال باشا السفاح وزعماء جمعية الاتحاد والترقي (طلعت وجمال)، وقد طلب الينا أن نخلص مائتي أسرة من أسر الأرمن ونوصلهم إلى مقّر الشريف فيصل بن الحسين، وكان الشريف يعطي ليرة من الذهب لكل أرمني يصل إلى العقبة لتسفيره إلى القاهرة، وبهذه الصورة تخلص الكثير من الأرمن من بطش الأتراك، وكنت رئيساً للقافلة لأنني كنت الوحيد المدرب على الفنون العسكرية، والمسؤول عن حياة المئات من الأشخاص، وكنا نسير ليلاً لكي نتجنب شدة الحر، وخوفاً من مداهمة القوات التركية، وأذكر أننا حين وصولنا إلى قلعة الأزرق، فوجئنا بهجوم من بعيد، وحصل تلاسن في القافلة، وأسرع الجميع بالسير من القلعة وأخذوا حصان أخي الدكتور أحمد، أما أنا فكنت راكباً على هجين، وطبعاً بقيت مع أخي الذي كان حانقاً على أفراد القافلة، وأخذ يشتم لأخذهم حصانه وتركه وحده، وكان أخي هو الذي أنفق على إحضار القافلة وصرف حوالي الألفين من الجنيهات الذهبية، والتي تعادل أكثر من عشرين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية الورقية، وبقيت طبعاً مع أخي، وأخذته أمامي على الهجين بعد ما تيقنت أن جميع القافلة سارت، وكنت أحاول تهدئته والتخفيف عليه، خاصة وأن يده جرحت من قبضة الهجين، وبعد خلاصنا من منطقة الخطر وجدنا حصانه، وحلت المشكلة...!

مررنا من عمان صباحاً وكانت في ذلك الحين مجرد قرية صغيرة يقطنها الشراكسة، ولا يوجد فيها سوى حوالي الخمسين بيتاً من الطين، والشراكسة كانوا مزارعين ولم يكونوا موالين للقوة التركية، بل كانوا يهتموا فقط بزراعتهم، وهم فرسان أقوياء، ومنهم قسم شكل قوة خيالة (سرية) كانت في حلب في مّقر جمال السفاح للمظهر وكان آمر هذه السرية من عمان، وكان تحت أمرتي. ومن الغريب أنه في خلال السنين 1923إلى 1926 كان هو وصحبه في مقر المرحوم الملك عبد الله، وكنت ألاطفه خلال زياراتي المختلفة إلى عمان في وقت ولاية الملك فيصل.. وكان قسم من هذه القوة من الأرمن ولا يزالون إلى الآن (1964) في عمان في المقر.

وعند وصولنا منطقة بني صخر ظهراً فوجئنا بطلقات نارية من التلول والوديان المحيطة بنا، وكنت أعلم بأن بدو بني صخر كانوا موالين للأتراك، لذلك كنت متأكداً أن هذه الرماية جاءتنا من بني صخر. أوقفت القافلة وأخذت ترتيبات الربائب خوفاً من الوقوع في فخ مباغت، وأخذت المدفع الرشاش والجندي الذي يحمله، وصعدت ومعي بندقيتي إلى أعلى التل الذي يأتي منه اتجاه الرمي، وطلبت من الجندي أن يطلق النار من مدفعه الرشاش، ولكن الجندي سألني أين العدو؟ وما هي المسافة؟ وكنت أعلم أن البدو كانوا يخشون كثيراً من المدفع الرشاش، ولم يكن عندهم في حينها أي مدافع رشاش، لأنه كان سلاحاً جديداً آنذاك، لذلك رغبت أن يطلق الرصاص كيف ما شاء ولا حاجة للمسافة، وبعد إطلاق الرشاش انقطعت الطلقات، ورأيت البدو يتراجعون للوراء، ونجونا من الوقوع في أيدي عرب بني صخر، وأعدت الترتيبات العسكرية ثم واصلنا مسيرتنا. وعلمت فيما بعد من تقارير ومذكرات قادة الأركان بأن جمال باشا قد أغرى عشيرة بني صخر لكي يأتوا بي حياً أو ميتاً، بمكافأة مقدارها خمسمائة جنيه من الذهب.. ولم يكن في تقديري أن حياتي تساوي فقط خمسمائة من الجنيهات، ولو كان الأمر كذلك فالمسألة رخيصة.

بعدها دخلنا في حدود وادي سرحان وعرب الحويطات، الذين يرأسهم الشيخ عودة أبو تايه، وكنا نسير معتمدين على الآبار، وفي بعض الأحيان نبقى ليومين أو ثلاث بدون ماء إلى أن نصل البئر، وكانت الجمال والهجن تتحمل العطش، أما نحن فكنا نعاني الكثير من الضيق بسبب العطش، وكان البعض يشرب بول الإبل.. وعند وصولنا أحد الآبار وجدنا الماء فيه يكاد أن يكون أسود اللون ومليء بالحشرات، حينها وضعت المحرمة (الكفية) على قليل من هذا الماء بقصد التصفية ثم شربته باشتهاء. وأذكر حادثة حصلت بين رجال القافلة والأرمن المرافقين، فقد حصل شجار على البئر لأخذ الماء، وأطلق أحد رجال القافلة من البدو النار على أحد الأرمن وجرحه، ثم تداخلت بينهم وحللت الشجار وعاد السلام، وطمأنت بعض أعضاء القافلة الذين كانوا يخشون من أن رجال القافلة سوف يبيدونهم، وكان طعامنا في الرحلة يتكون من القليل من الخبز اليابس وقليل من حبات التمر.

ومن غريب الصدف أنني في عام 1934 أو 1935 ذهبت إلى الإسكندرية للاصطياف، واضطررت للذهاب إلى طبيب الأسنان، فتوجهت إلى أشهر طبيب في حينها، وأسمه على ما أذكر " كريكوريان "، ومن سياق الحديث معه اكتشفت أنه كان حاضراً معركة البئر هذه، فتصافحنا وقال لي: لولاك لكنا قتلنا جميعاً، وذكر لي الحادثة كما كانت وبجميع تفاصيلها، عندها قلت لنفسي: " أن الإنسان يجب أن يعمل الخير في حياته لأن هذا لا يضيع"، وأنني على يقين من هذه الفلسفة الواقعية التي جربتها مراراً، وتخلصت من الكثير من المآزق بسبب جنوحي لعمل الخير، ومساعدة المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين. كنا نسير طوال الليل في هذه الرحلة، وقد تعودت على النوم على الهجين، أما أخي الدكتور أحمد فكان على فرسه السوداء (أنكلو أراب) التي اشتراها من دمشق، وكانت من غنائم الجيش البريطاني التي استولى عليها الأتراك وقت التقدم في هجوم القنال.

في انتظار مرور موكب الملك فيصل الثاني في احد شوارع بغداد عام 1957

جمال باشا السفاح على زورق تابع للبحرية العثمانية

كان الأرمن ما زالوا يهربون من بطش جمال باشا السفاح وزعماء جمعية الاتحاد والترقي (طلعت وجمال)، وقد طلب الينا أن نخلص مئتي أسرة من أسر الأرمن ونوصلهم إلى مقّر الشريف فيصل بن الحسين، وكان الشريف يعطي ليرة من الذهب لكل أرمني يصل إلى العقبة لتسفيره إلى القاهرة، وبهذه الصورة تخلص الكثير من الأرمن من بطش الأتراك، وكنت رئيساً للقافلة لأنني كنت الوحيد المدرب على الفنون العسكرية، والمسؤول عن حياة المئات من الأشخاص، وكنا نسير ليلاً لكي نتجنب شدة الحر، وخوفاً من مداهمة القوات التركية، وأذكر أننا حين وصولنا إلى قلعة الأزرق، فوجئنا بهجوم من بعيد، وحصل تلاسن في القافلة، وأسرع الجميع بالسير من القلعة وأخذوا حصان أخي الدكتور أحمد، أما أنا فكنت راكباً على هجين، وطبعاً بقيت مع أخي الذي كان حانقاً على أفراد القافلة، وأخذ يشتم لأخذهم حصانه وتركه وحده، وكان أخي هو الذي أنفق على إحضار القافلة وصرف حوالي الألفين من الجنيهات الذهبية، والتي تعادل أكثر من عشرين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية الورقية، وبقيت طبعاً مع أخي، وأخذته أمامي على الهجين بعد ما تيقنت أن جميع القافلة سارت، وكنت أحاول تهدئته والتخفيف عليه، خاصة وأن يده جرحت من قبضة الهجين، وبعد خلاصنا من منطقة الخطر وجدنا حصانه، وحلت المشكلة...!